دلالة الكِتاَب في قوله تعالى " وَيُعَلِّمُهُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَاةَ وَالْإِنْجِيلَ" :(آل عمران: 48)

The meaning of the book in verse 48 Surat Al-Imran

أ.مخلد إسماعيل سليمان أبو هلالة

كلية الشريعة \ الجامعة الأردنية

osama.mokhled@yahoo.com

تاريخ الوصول: 2018/09/30 / القبول:2019/03/06/ النشر على الخط:2019/03/15

Received: 30/09/2018/ Accepted: 06/03/2019 / Published online: 15/03/2019

ملخص البحث :

تتناول هذه الدراسةُ دلالةَ " **الكِتَاب** " في قوله – تعالى – " وَيُعَلِّمُهُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَاةَ وَالْإِنْجِيلَ" دراسة دلاليَّة نقديَّة، حيثُ جَمَعَ الباحثُ أقوالَ المفسِّرين في معنى " **الكِتَاب** " في هذه الآية الكريمة، و صنَّفها، ثُمَّ ناقش أقوالهم وفق منهجٍ علميٍّ، لمعرفة مدى توافُقِ المعاني التي ذكروها مع دلالة الكِتَاب في سياقها القرآنيِّ، و التاريخيِّ، و لتحديد دلالة " الكِتَاب " في هذه الآية الكريمة بعد قراءتها في سياقها في القرآن الكريم . وقد خَلُصَ الباحثُ **أنَّ** المفسِّرين اعتمدوا الروايةَ عن ابن جُريج و ابن عباس – رضوان الله عليهم – بأنَّ معنى الكِتَابِ في هذه الآية الكِتَابةُ و الخطُّ، مع إغْفالِ المفسِّرين السِّياقَ القرآنيَّ، الذي يعتبر مِن أهمِّ مقومات فهْمِ النَّص القرآنيِّ، لذلك درس الباحثُ دلالة " الكِتَاب "

في هذه الآية الكريمة في سياقها القرآنيِّ لتحديد دلالتها، حيث خَلُصَ الباحثُ أنَّ دلالة الكِتَاب في الآية الكريمة القرآنُ الكريمُ .

الكلمات المفتاحية : الكِتَاب، دلالة، القرآن .

Abstract :

This study aims to examine the meaning of the book in Verse 48 Surat Al-Imran. This study is based on collecting the book's meaning from interpretation books and discuss them , and study the book's meaning in Quranic and historical context to determine the book's meaning. The researcher found the interpretation scholars depend on the narration to determine the meaning of the book , and omitted the context of the holy Quran.

Key words : The book , Semantic , Quran.

المقدمة :

الحمدُ لله ربِّ العالمين و الصَّلاة و السَّلام على سيّد المرسلين، محمَّد بن عبد الله و على آله، و صحبه أجمعين.

أما بعد : أنزل الله القرآن الكريم هدايةً للعالمين، و ليكونَ لهم شِرعةً و منهاجاً ، يسيرون بهدية، ويطبقون أوامره وينتهون عما نهاهم عنه، فأنزله بلسان عربيٍّ مبين، ففهموا دلالاته و معانيه، و اختلف المفسِّرون في تحدد دلالة كثيرٍ من الآيات وفقاً لمنهجهم في دراسة هذه الآيات . لذلك هذه الدراسة تَبْحثُ دلالةَ " الكِتَاب " في قوله – تعالى – " وَيُعَلِّمُهُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَاةَ وَالْإِنْجِيلَ " حيث تعددت أقوال المفسِّرين فيها، فجاءت هذه الدراسة لجمْع أقوال المفسِّرين و مناقشتها، ثُمَّ دراسة دلالة " الكِتَاب " في هذه الآية في سياقها التاريخيِّ و القرآنيِّ لتحديد دلالتها.

مشكلة الدراسة :

اختلف المفسِّرون في تفسير الآيات القرآنية لاخْتلافِ منهجِهم في قراءة النَّص القرآنيِّ، حيثُ إنَّ منهم مَن كان يعتمد على الرِّواية مطلقاً عن الصَّحابة و التابعين – رضوان الله عليهم – مع اختلافِهم في تحديد دلالة الألفاظ القرآنية، مُبْتعِداً عن دراسة السِّياق القرآنيِّ،، الذي يعتبر من أهم مقومات فهم النَّص القرآنيِّ، و لذلك جاءت هذه الدراسة لِتُسلِط الضوء على دور السِّياق القرآنيِّ في تحديد دلالات الألفاظ و الآيات القرآنيَّة .

أهمية الدراسة :

تبرز أهمية الدراسة في الكشف عن دلالة لفظٍ من ألفاظِ القرآن الكريم، و قراءتهِ في ضوء السياق التاريخيِّ و القرآنيِّ لتحديد دلالته، و بيانِ أهمية السياق التاريخيِّ و القرآنيِّ في تحديد دلالة الألفاظ، حتى تكونَ أنموذجاً للمهتمين في تفسير القرآن الكريم في دراستهم دلالات الألفاظ و التراكيب في القرآن الكريم .

أسئلة الدراسة :

1- ما مُقوماتُ فهْمِ النَّص التي اعتمد عليها المفسِّرون في تحديد دلالة الكِتَاب في هذه الآية الكريمة؟

2- ما دلالة الكتاب في قوله – تعالى – " وَيُعَلِّمُهُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَاةَ وَالْإِنْجِيلَ " في سياقها التاريخيِّ و القرآنيِّ؟

3- أثر السياق القرآنيِّ و التاريخيِّ في تحديد دلالة الألفاظ و التراكيب في القرآن الكريم ؟

أهداف الدراسة :

1- بيان مدى توافُقِ أقوال المفسِّرين في دلالة الكِتَاب في هذه الآية مع السياق القرآنيِّ.

2- قراءةُ دلالة الكِتَاب في سياقها التاريخيِّ و القرآنيِّ لتحديد دلالتها في القرآن الكريم

3- بيانُ دور السياق القرآنيّ في الكشف عن دلالات الألفاظ و التراكيب في القرآن الكريم .

منهج الدراسة :

المنهج الاستقرائيّ : استقراء معنى لفظ " الكِتَاب " في قوله – تعالى – " وَيُعَلِّمُهُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَاةَ وَالْإِنْجِيلَ " من كتب التفسير، و تصنيف أقوال المفسِّرين. و ذِكْرُ أقوال المفسِّرين في الآية الأخرى المشابهة التي جاءت بصيغة الفعل الماضي " وَإِذْ عَلَّمْتُكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَاةَ وَالْإِنْجِيلَ "المائدة (110)، إذا ذكَرَ المفسِّرون فيها دلالة مختلفة.

المنهج التحليليّ : دراسة و مناقشة أقوال المفسرين في دلالة لفظ " الكِتَاب " في الآية الكريمة، ثمَّ قراءة دلالة الكتاب في سياقها التاريخيِّ و القرآنيِّ .

التمهيد : تعريف بمحددات الدراسة :

أولاً : معنى الكِتَاب في المعجم العربيِّ : –

يقول ابن فارس : " كَتَبَ : الْكَافُ وَالتَّاءُ وَالْبَاءُ أَصْلٌ صَحِيحٌ وَاحِدٌ يَدُلُّ عَلَى جَمْعِ شَيْءٍ إِلَى شَيْءٍ. مِنْ ذَلِكَ الْكِتَابُ وَالْكِتَابَةُ. يُقَالُ: كَتَبْتُ الْكِتَابَ أَكْتُبُهُ كَتْبًا "([1])

فابن فارس يرى أن الْكَافَ وَالتَّاءَ وَالْبَاءَ أَصْلٌ يدلُّ على جَمْعِ شيءٍ إلى شيءٍ، فلذلك سُمِّيَ الكِتَاب كِتَاباً،لأن الحروفُ تُجْمَعُ معاً، لِتُكونَ دلالاتٍ و معانٍ .

و يقول الرَّاغب : " الْكَتْبُ: ضمّ أديم إلى أديم بالخياطة، يقال: كَتَبْتُ الْبَغْلَةَ، إِذَا جَمَعْتُ شُفْرَيْ رَحِمِهَا ([2]) بِحَلْقَةٍ. وفي التّعارف ضمُّ الحروفِ بعضُها إلى بعضٍ بالخطِّ، وقد يقال ذلك للمضموم بعضُها إلى بعضٍ باللّفظ، فالأصل في الْكِتَابَةِ: النّظم بالخطّ لكن يستعار كلُّ واحدٍ للآخر، ولهذا سمِّي كلام الله- وإن لم يُكْتَبْ- كِتَاباً كقوله: " ألم * ذلِكَ الْكِتابُ " البقرة(1- 2). والكِتَاب في الأصل مصدرٌ، ثُمَّ سُمِّيَ المكتوب فيه كِتَاباً"([3])

إذن " الكافُ و التَّاءُ و الباءُ " في الأصل اللغويِّ تدلُّ على جمْعِ شيءٍ إلى شيءٍ، ومن هذا المعني، سُمِّيَ الكتاب كتاباً، لأنه كُتِبَ كتابةً، فالحروف تُجمَعُ بعضُها مع بعضٍ لِتُشكِّلَ كلماتٍ ذات دلالة في سياقها، و قد يأتي لفظُ الكِتَابِ بمعنى المكتوب على وزن مفعول كقوله – تعالى – " وَلَا تَعْزِمُوا عُقْدَةَ النِّكَاحِ حَتَّى يَبْلُغَ الْكِتَابُ أَجَلَهُ "(البقرة:235)

---

[1]- مقايس اللغة ، ابن فارس 5\ 158 .

[2]- شُفْرَيْ رَحِمِهَا : طَرَفِي الْبَغْلَةِ مِن جهةِ فَرْجِها .

[3]– المفردات في غريب القرآن ، الراغب الأصفهانيُّ \ 699

ثانياً : معنى السياق لغة و اصطلاحاً :

السياق لغة :

يقول ابن فارس : " السِّينُ وَالْوَاوُ وَالْقَافُ أَصْلٌ وَاحِدٌ، وَهُوَ حَدْوُ الشَّيْءِ. يُقَالُ سَاقَهُ يَسُوقُهُ سَوْقًا، وَالسَّيِّقَةُ: مَا اسْتِيقَ مِنَ الدَّوَابِّ. وَيُقَالُ سُقْتُ إِلَى امْرَأَتِي صَدَاقَهَا، وَأَسَقْتُهُ. وَالسُّوقُ مُشْتَقَّةٌ مِنْ هَذَا، لِمَا يُسَاقُ إِلَيْهَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ، وَالْجَمْعُ أَسْوَاقٌ. وَالسَّاقُ لِلْإِنْسَانُ وَغَيْرُهُ، وَالْجَمْعُ سُوقٌ، إِنَّمَا سُمِّيَتْ بِذَلِكَ لِأَنَّ الْمَاشِيَ يَنْسَاقُ عَلَيْهَا " ([4])

فأصل السِّين وَالْوَاو وَالْقَاف : حَدْوُ الشيء، يُقَالُ : تساوقت الأبل، أيْ : تتابعت ،و قوله – تعالى– :" وَسِيقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَى جَهَنَّمَ زُمَرًا "(الزمر : 71) ،و قوله – تعالى – " وَنَسُوقُ الْمُجْرِمِينَ إِلَى جَهَنَّمَ وِرْدًا " (مريم : 86) أيْ : متتابعين . فلذلك المعنى المعجمي يدلُّ على التتابع، و التسلسُل،أيْ : لُحُوق الشيءِ لشيءٍ آخر،وهو المعنى الحسيُّ، الذي اسْتُعمِل فيه هذا الجذر، ثمَّ تطور الدَّلالة لتدلَّ على سَوقُ الكلام، يقول الزمخشريُّ بعدما ذَكَرَ المعنى الحسيّ : " وهو يسوق الحديث أحسن سياقٍ، وإليك يساق الحديث، وهذا الكلام مساقةٌ إلى كذا، وجئتك بالحديث على سوقِهِ " ([5])

وهناك ارتباطٌ بين المعنى المعجميّ للسياق الذي يدلُّ على التتابُع، و المعنى الاصطلاحيّ، فالكلام يتساوق أيْ : يتتابع مكوِّناً نصاً ذا دلالة على مراد المتكلِّم، قال ابن دقيق العيد : " أَمَّا السِّيَاقُ وَالْقَرَائِنُ: فَإِنَّهَا الدَّالَّةُ عَلَى مُرَادِ الْمُتَكَلِّمِ مِنْ كَلَامِهِ "([6]). فابن دقيق العيد يتحدث عن السياق الداخلي للنص، و هو ما يُسمَّى السياقَ اللغويَّ، و هي القرائن اللفظيَّة الدَّالة على مراد المتكلم، وأعتقد أنَّ السياق أوسعُ من أنْ يحصرَ في السياق الداخلي للنَّص، فلذلك فالسياق اصطلاحاً كما أراه هو: " تتابُع الألفاظِ و نظمُها وفقَ المعاني التي سِيقتْ لها، مع مراعاة حال المخاطِب و المخاطَب، و البيئة التي قِيل فيها هذا الكلام، وعلى هذا فللسياق نوعان: **أولهما** : السِّياق اللغويُّ، أو سياق المقال،و يُسمِّيه بعض اللغويِّن السياق الداخلي للنَّص، و هو يتكون من السِباق و اللِحاق للنص الذي يراد معرفة دلالته، ومثال ذلك : قائلون جمْع قائل، و "قائل " لها معنيان في اللغة، الأول : الذي يصدُّر عنه الكلام، فنقول : قال، يقول، فهو قائل، و الجمع قائلون، أما المعنى الثاني : فهو من القِيلولة، نقول

[4] – مقاييس اللغة ، ابن فارس 3 \ 117

[5] – أساس البلاغة ، الزمخشريّ 1\ 484

[6] – إحكام الإحكام شرح عمدة الأحكام ، ابن دقيق العيد 1 \ 21

قال يقول، فهو قائل، وقائلون، و لكن الذي يحدد دلالتها هو السِّياق الذي جاءت فيه هذه الكلمة ؛ فلذلك قال الله تعالى:{وَكَمْ مِنْ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا فَجَاءَهَا بَأْسُنَا بَيَاتًا أَوْ هُمْ قَائِلُونَ}.(الأعراف :4)، فالمقصود هنا القِيلولة، لأن السِّياق يدلُّ عليها، فقائلون بمقابل القرينة السياقية "بياتاً "، التي حددتْ المقصود بدلالة " قائلون " في الآية الكريمة. .

النوع الثاني : سياق الحال، أو سياق المقام، و هو السِّياق الخارجيّ للنَّص،هو يشمل حال المخاطِب والمخاطَب و الظروف المصاحبة له، و يتمثل سياق الحال في القرآن الكريم بأسباب النُّزول التي هي البيئة الخارجية للنص القرآني الذي تُسْهِم في فهْمِ و توضيحِ دلالة النَّص القرآنيِّ . و مثال ذلك من كتاب الله الصلاةُ، فقد وردت في اللغة بمعنى الدُّعاء، ثم تطور دلالتها لتدلَّ على الصلاة التي افترضها الله على عباده، فقوله – تعالى – : { خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلَاتَكَ سَكَنٌ لَهُمْ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ } (103)التوبة. جاءت في هذه الآية الكريمة بمعنى الدُّعاء، أيْ : و ادْعُ لهم – يا محمدُ –، و الذي حدَّد ذلك السِّياقُ، فالسِّياق اللغويُّ في هذه الآية الكريمة،وهو القرينة اللفظيَّة السابقة و اللاحقة، حيث أن الآية الكريمة تتحدث عن أخْذِ الصدقة التي تُطَهِّرُهُمْ من الذنوب، و تزَكِّي نفوسَهم، ثمَّ أمر نبيَّه – صلَّى الله عليه و سلَّم – أنْ يصلِّيَ عليهم، أيْ : يدعُوا لهم، و كذلك سياق الحال،وهو السِّياق الخارجي للنَّص،وهو ما رُوِي عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ أَبِي أَوْفَى، قَالَ: كَانَ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِذَا أَتَاهُ قَوْمٌ بِصَدَقَتِهِمْ، قَالَ: اللَّهُمَّ صَلِّ عَلَى آلِ فُلاَنٍ، فَأَتَاهُ أَبِي بِصَدَقَتِهِ، فَقَالَ: اللَّهُمَّ صَلِّ عَلَى آلِ أَبِي أَوْفَى"([7])، فالسِّياق المقال " اللغويُّ " وسياق المقام " الحال " يدلُّ أنَّ معنى " وَصَلِّ عَلَيْهِمْ" ادْعُ لهم بالرحمة.

أما قوله – تعالى – : {وَلَا تُصَلِّ عَلَى أَحَدٍ مِنْهُمْ مَاتَ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ عَلَى قَبْرِهِ إِنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَمَاتُوا وَهُمْ فَاسِقُونَ}. (84) التوبة فالمقصود بدلالة " تُصَلِّ " في هذه الآية الكريمة صلاة الجنازة، حيث نُهِي النبي – صلى الله عليه وسلم – أنْ يُصلِّي على غير المسلِّم، و ذلك بدلالة سياق الحال، و هو سبب النُّزول، الذي رُوِي عَنِ ابْنِ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: أَنَّ عَبْدَ اللَّهِ بْنَ أُبَيٍّ لَمَّا تُوُفِّيَ، جَاءَ ابْنُهُ إِلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَعْطِنِي قَمِيصَكَ أُكَفِّنْهُ فِيهِ، وَصَلِّ عَلَيْهِ، وَاسْتَغْفِرْ لَهُ، فَأَعْطَاهُ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَمِيصَهُ، فَقَالَ: آذِنِّي أُصَلِّي عَلَيْهِ، فَآذَنَهُ، فَلَمَّا أَرَادَ أَنْ يُصَلِّيَ عَلَيْهِ جَذَبَهُ عُمَرُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، فَقَالَ: أَلَيْسَ اللَّهُ نَهَاكَ أَنْ تُصَلِّيَ عَلَى المُنَافِقِينَ؟ فَقَالَ: " أَنَا بَيْنَ خِيَرَتَيْنِ، قَالَ: {اسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لاَ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِنْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً، فَلَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ

[7] – صحيح البخاري ، رقم الحديث (**1497**)

لَهُمْ} [التوبة: 80] فَصَلَّى عَلَيْهِ، فَنَزَلَتْ: {وَلاَ تُصَلِّ عَلَى أَحَدٍ مِنْهُمْ مَاتَ أَبَدًا، وَلاَ تَقُمْ عَلَى قَبْرِهِ} [التوبة: 84] " ([8]).

لذلك فالسِّياق من مقومات فهم النَّص، و لا يمكن الاستغناء عنه في دراسة دلالات القرآن الكريم، حيث

2- إنَّ معاني الكلمة العربية في المعاجم اللغوية تتعدَّد، لذلك نجد أنَّ الكلمة العربية لا يمكن ضبط دلالتها خارج سياقها ؛ لأنَّ السياق هو الذي يرسم دلالتها،يقول تمّام حسان : " إنَّ الكلمة المفردة وهي موضوع المعجم يمكن أنْ تدلَّ على أكثر من معنى وهي مفردة، ولكنَّها إذا وضعتْ في مقال يفهم في ضوء مقام،انتفى هذا التعدُّد عن معناها، ولم يَعُدْ لها في السِّياق إلّا معنى واحد؛ لأنَّ الكلام وهو السِّياق لا بُدَّ أن يَحْمِل مِن القرائن المقاليَّة "اللفظيَّة" والمقامية "الحالية" ما يعيِّن معنًى واحدًا لكلِّ كلمة. فالمعنى بدون المقام "سواء أكان وظيفيًّا أم معجميًّا" متعدِّدٌ ومحتمِلٌ ؛ لأنَّ المقام هو كبرى القرائن، ولا يتعيّن المعنى إلّا بالقرينة " ([9])

المطلب الأول : أقوال المفسِّرين في دلالة الكتاب في الآية الكريمة :

أولاً : منهجي في عرض أقوال المفسرِّين معنى " الكِتَاب " في هذه الآية الكريمة " وَيُعَلِّمُهُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَاةَ وَالْإِنْجِيلَ " أل عمران 48

1 : ذِكْرُ أقوال المفسِّرين في دلالة الكتاب في هذه الآية الكريمة " وَيُعَلِّمُهُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَاةَ وَالْإِنْجِيلَ "(أل عمران: 48)،حسب التاريخ الزمني للمفسِّرين.

2 : قد يَذْكُر بعضُ المفسِّرين أكثرَ من معنى للكِتَاب مرجِّحاً أو غير مرجِّح بينها، و سأورد ما رجَّحه في تفسيره، أما إذا لم يرجح سأورد كلَّ ما ذكره من أقوال في دلالة الكتابة في هذه الآية الكريمة.

3 : ذِكْرُ أقوال المفسِّرين في الآية الأخرى المشابهة التي جاءت بصيغة الفعل الماضي " وَإِذْ عَلَّمْتُكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَاةَ وَالْإِنْجِيلَ "المائدة (110)، إذا ذكَرَ المفسِّرون فيها دلالة مختلفة .

4- قد لا أذكرُ أقوال بعض المفسِّرين، لأنَّ أقوالهم لم تخرجْ عمَّا ذكرتُه في هذا المطلب .

ثانياً : أقوال المفسِّرين في دلالة الآية الكريمة :

[8] – المرجع السابق ، رقم الحدث (**1269**)

[9] – اللغة العربية معناها ومبناها ، تمّام حسان 1 \ 39

1 : الكتابةُ و الخطُّ ([10]):

كلُّ المفسِّرين ذكروا أنَّ دلالة الكتاب في هذه الآية الكريمة الكتابةُ و الخطُّ، و منهم مَن ذكر قولاً أو أقوالاً أخرى مع هذا القول . المقصود بتعْلِيمهِ الكتابَ القدرة على الكتابةِ باليد .و أعتقد أنَّ كثيراً من المفسِّرين نقلوا هذا المعنى عمّن قبلهم من المفسِّرين، و لم يدرسوا سياق هذه الآية الكريمة في سياقها القرآنيِّ و التاريخيِّ لتحديد دلالتها يقول الإمام الطبريُّ : " فَيُعَلِّمُهُ الْكِتَابَ، وهو الخطُّ الذي يخطه بيده والحِكْمة، وهي السُّنة التي يُوحيها إليه في غيرِ كتابٍ، والتوراة، وهي التوراة التي أُنزلتْ على موسى، كانت فيهم من عهد موسى، والإنجيل، إنجيل عيسى"([11]).

اعتمد الإمام الطبريُّ في تحديد دلالة الكتاب في هذه الآية الكريمة على الرواية عن ابن جُريجٍ، حيث نقَلَ الإمام الطبريُّ رواية عن ابن جُريجٍ بعد أن ذكر دلالة الكِتَاب، حيثُ قال حدثنا القاسم قال، حدثنا الحسين قال، حدثني حجاج قال، قال ابن جُريجٍ :"ونعلمه الكِتَاب"، قال: بيده ([12]). و مِن ثُمَّ نقل كثيرٌ من المفسِّرين عن الإمام الطبريِّ هذا المعنى . ([13]):

2 : جنس الكتاب

يذهب أصحاب هذا القول أنَّ " أل " التعريف في الكتاب للجنس، أي : أنَّ دلالة الكِتَاب تشمل جميع الكتب التي أنزلها الله، و يكون ذِكْرُ التَّوْرَاةِ وَالْإِنْجِيلِ تخصيصاً لهما . يقول البيضاويُّ في معنى الكتاب في قوله – تعالى :{وَيُعَلّمُهُ الكتاب} والْكِتابَ الكتبة ، أو جنس الكتب المنزلة. وخُصَّ الكتابان لفضْلِهما"([14]).

فالإمام البيضاويُّ ذَكَرَ قولين أولاهما : بمعنى الكِتَابة، و الثاني : جنس الكُتب المنزَّلة، و يكون ذِكْرُ التوراة و الإنجيل تخصيصاً لهما .

---

[10] – انظر : جامع البيان في تأويل القرآن ، الطبريُّ 6 \ 423 . تفسير المحرر الوجيز ، ابن عطية 1 \ 448 ، ، معالم التنزيل في تفسير القرآن ، البغويُّ 1 \ 441 . مفاتيح الغيب ، الرازيُّ 12 \ 415 . أنوار التنزيل وأسرار التأويل ، البيضاويُّ 2 \ 18 . تفسير الجامع لأحكام القرآن ، القرطبيُّ 4 \ 93 . تفسير القرآن العظيم ، ابن كثير 2 \ 37 . البحر المحيط في التفسير ، أبو حيان 3 \158 . اللباب في علوم الكتاب ، ابن عادل 7 \ 600 ، تفسير إرشاد العقل السليم ، أبو السعود 2 \ 38 ، **محاسن التأويل** ، القاسمي2 \ 320 ، التحرير والتنوير، ابن عاشور 3 \ 249 . ، تفسير تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان ، السعديُّ 1 \ 131 ، الأساس في التفسير ، سعيد حوى 2 \ 767

[11] – جامع البيان في تأويل القرآن ، محمد بن جرير الطبريُّ 6 \ 423

[12] – المرجع السابق 6 \422

[13] – انظر ، أنوار التنزيل وأسرار التأويل ، البيضاويُّ 2 \ 18 . ، تفسير إرشاد العقل السليم ، أبو السعود 2 \ 38 . **محاسن التأويل** ، القاسمي2 \ 320، تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان ، السَّعدي 1 \ 131.

[14] – أنوار التنزيل وأسرار التأويل ، البيضاويُّ 2 \ 18

3 : الْكِتَابُ الْمَعْهُودُ

يذهب أصحاب هذه القول أن " أل " في الكِتَاب عهديَّة، و على قولهم يكون العهدُ ذهنياً، لأنَّه لم يُذكرْ في السِّياق ما يوضح معنى الكِتَاب .

يقول ابن عاشور : " وَالْكِتَابُ مُرَادٌ بِهِ الْكِتَابُ الْمَعْهُودُ. وَعَطْفُ التَّوْرَاةِ تَمْهِيدٌ لِعَطْفِ الْإِنْجِيلِ- وَيَجُوزُ أَنْ يَكُونَ الْكِتَابُ بِمَعْنَى الْكِتَابَةِ " ([15])

4 : التدرج بتعلم الكتب من السهل إلى الأصعب

ذَكَرَ الإمام الرازيُّ قولينِ : أولاهما : أنَّ دلالة الكتاب في الآية الكريمة تعليم الكِتَابة، و القول الثاني : أنَّ دلالته تعلُّم الكُتُب من السَّهل إلى الأصْعب حيث قال : " فَإِنَّ الْإِنْسَانَ يَتَعَلَّمُ أَوَّلًا كُتُبًا سَهْلَةً مُخْتَصَرَةً، ثُمَّ يَتَرَقَّى مِنْهَا إِلَى الْكُتُبِ الشَّرِيفَةِ "([16])

5 : كتابٌ منزلُ لم يُعيَّن .

هذا القول ذَكَرَهُ بعضُ المفسِّرين، و لكن بصِيغة التَّضعيف قِيلَ، قال أبو حيان " وَقِيلَ: الْكِتَابُ هُوَ كِتَابٌ غَيْرُ مَعْلُوم "([17])

6 : ما افترضه الله من المكتوبات على الخلق :

ذهب سعيد حوّى أن المقصود بالكتاب في هذه الآية تعليم الكتابة أو جنس الكتاب، أو ما افترضه الله من المكتوبات على الخلق، أيْ: ما كتبه الله على عباده من الفرائض، يقول حوى : " وَيُعَلِّمُهُ الْكِتابَ يحتمل هنا الكتابة، أو كتب الله أو ما افترضه الله من المكتوبات على الخلق " ([18]) . و هذا أحد قولي ابن عادل الحنبلي، الذي ذَكَرهما في تفسيره، يقول ابن عادل : " قوله: " وَإِذْ عَلَّمْتُكَ الكتاب والحكمة والتوراة والإنجيل" قيل: الكِتَابُ، الشَّريعةُ، وقيل: الخَطُّ"([19]) . و الشريعة هي الأحكام الشرعية التي يكلَّف بها العباد .

7: ما أطلعه الله عليه من غيوب اللوح المحفوظ :

---

[15] – التحرير و التنوير ابن عاشور \ 3 \ 249

[16] – مفاتيح الغيب ، الرازيُّ 12 \ 415

[17] – البحر المحيط في التفسير ، أبو حيان 3 \158

[18] – الأساس في التفسير ، سعيد حوى 2 \ 767

[19] – اللباب في علوم الكتاب ، ابن عادل 7 \ 600

هذا ذكره حوّى عند قوله – تعالى – :" وَإِذْ عَلَّمْتُكَ الْكِتابَ " بعدما ذكر أقوالاً آخر، الكتابة و الخط، و مطلق الكتاب، وما افتراضه الله على عباده. يقول حوى : " وَإِذْ عَلَّمْتُكَ الْكِتابَ فسّرها بعضهم بالكتابة والخط، وتحتمل مطلق الكتاب أي جنسه، وتحتمل ما أطلعه الله عليه من غيوب اللوح المحفوظ وتحتمل ما افترضه الله على عباده " ([20])

المطلب الثاني:مناقشة أقوال المُفسِّرين بدلالة "الكِتَاب" في هذه الآية: الكتابةُ و الخطُّ .

القول الأول :

ذهب المفسِّرون إلى أنَّ المقصود بالكِتَاب في هذه الآية الكريمة الكتابةُ و الخطُّ، أي : أنَّ الله علَّم عيسى – عليه السَّلام – الكتابة، و أَعتقدُ أنَّ المفسِّرين اعتمدوا على الروايات في تحديد هذا المعنى، كالإمام الطبريِّ الذي نَقَلَ قولَ ابن جُرَيْجٍ، ثُمَّ نَقَلَ كثيرٌ من المفسِّرين هذا المعنى عنه . وهذا القول يُنْقدُ بما يلي :

أولاً : الكتابة، الخطُّ من الحاجات الإنسانية التي يتعلَّمُها الإنسان، لذلك امتنَّ الله على الإنسان أنَّه علَّمَه بالقلم " اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ (3) الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ (4) " العلق . و لم يكن التعليم مباشرة لهذا الإنسان، إنما أعطاه العقل ليُفَكِّر و يَبْتكِرُ،لهذا عَرَفَ الإنسان الكتابة منذ آلاف السنين، و تطورت أساليبها و أدواتها على مرّ السنوات . فلذلك ما الفضل و الميزة الذي فُضِلَ بها عيسى – عليه السلام – بتعليمه الكتابة، الخط، وهي من الأمور الدنيوية، و التي يمكن تَعلُّمها من خلال الممارسة ، و ما هو فَضْل عيسى – عليه السلام – عليهم، وهم يعرفون الكتابة كما عُلِّمها.

ثانياً : من خلال سياق القرآن الكريم نجد أنَّ دلالة الكتاب ، لم تأتِ بمعنى المصدر الكتابة مطلقاً . و خاصةً عندما نقرأ الآية الكريمة نجد الحديث عن التوراة و الإنجيل ، فما علاقة تعليم شأن من شؤون الدنيا، و هي الكتابة و الخطُّ، بتعليم الكتب المنزَّلة من عند الله التوراة و الإنجيل .لذلك أعتقد أنَّ القول بأنَّ معنى الكِتَاب في هذه الآية الكريمة الكتابة و الخطُّ، لا يتوافق مع السياق القرآنيِّ لهذه الآية الكريمة ، حيثُ سياقُ الحديث عن الامْتنان على عيسى – بتعْليمِهِ الكتب المنزَّلة من عنده – سبحانه – .

القول الثاني : **جنس الكتاب** .

[20] – الأساس في التفسير ، سعيد حوى 3 \ 1545

يذهب أصحاب هذا القول أنَّ **أل** التعريف للجنس، فتكون معنى الكِتَاب كلَّ الكتب التي أنزلها الله على أنبيائه- عليهم السَّلام- ، و يكون ذِكْرُ التوراة والإنجيل تخصيصاً لهما، لشرفهما وفضلهما واحتوائهما على الأحكام والشرائع التي يحكم بها أنبياء بني إسرائيل.

أقول واو العطف تفيد المغايرة، حيثُ عُطِفتْ التوراة و الإنجيل على الكِتَاب،فهذا يفيد أنَّ هناك اختلافاً بين المعطوفات، و كذلك عَطْفُ الحِكْمةِ على الكِتَاب أولاً، ثُمَّ عَطْفُ التوراة و الإنجيل . و هذا يدلُّ على أنَّ الكِتَاب ليس المقصود به التوراة و الإنجيل .

أما القول أنَّ المقصود به جنس الكُتُب، فلماذا يتعلَّم كلَّ هذه الكُتُبِ التي أنزلها الله – سبحانه – على أنبيائه، و ليس لعيسى – عليه السَّلام – حاجةٌ لِيتعلَّمَها . إنما كانت الحاجة لِتَعلُمِ التوراة، لأنَّها كانتْ في بني إسرائيل، و هذا قبل أن يؤتيه الله الإنجيل . لذلك امتنَّ الله عليه بتعْليمِهِ التوراةَ و الإنجيلَ .

القول الثالث : ما ذكره الإمام الرازي : " فَإِنَّ الْإِنْسَانَ يَتَعَلَّمُ أَوَّلًا كُتُبًا سَهْلَةً مُخْتَصَرَةً، ثُمَّ يَتَرَقَّى مِنْهَا إِلَى الْكُتُبِ الشَّرِيفَةِ"

ما هذه الكتب السَّهلة، و لماذا يتعلَّمها ! و الله قادرٌ أن يعلِّمه ما يشاء. و هل هذه الكُتُب السَّهلة، هي كلام الله، و أعتقد أنَّ هذا القول مِن أضعف الأقوال التي ذكرها المفسِّرون ، حيثُ إنَّ الله إذا أراد أن يعلم نبيه ما شاء فلا حاجةَ للتدرج في التعليم كما هو شأن البشر، الذين بحاجة إلى ذلك .

القول الرابع : الْكِتَابُ الْمَعْهُودُ

يذهب صاحب هذا القول أنَّ **أل** التعريف في لفظ الكِتَاب في هذه الآية الكريمة **أل** العهديَّة، فيكون كِتَاباً معهوداً . و العَهْدُ إمَّا أنْ يكون مذكوراً في السِّياق، فيُفْهَمُ المقصود بذِكْره، و إمَّا أنْ يكون ذهنياً لدى المخاطِب و المخاطَب .

و أقولُ من خلال دراسة سياق الآية الكريمة لا نجد ما يدلُّ على ذلك المذكور حتى نقولَ أنَّ معنى الكِتَابِ في هذه الآية الكريمة الكِتَابُ المعهود ، و كذلك إذا كان عهداً ذهنياً ، فيكيف يخاطِبُنا الله، و نحن لا نعلم ذلك المعهود. فمثلاً معلمُ العلوم يدخل على طلابِه ، و يقول لهم : اخْرجُوا الكتابَ، فالمعهود لدى الطَّلاب كتابُ العلوم، لأنَّ لهم عهداً به .

القول الخامس :كتاب منزل لم يُعيَّن .

ذكر بعضُ المفسِّرين هذا القول بصيغة التضعيف قِيل، و لا حجةَ لأصحاب هذا القول على يذهبون إليه ، يقول ابن عطية : "وقال بعضُهم: هي إشارة إلى كتاب منزَّل لم يعين، وهذه دعوى لا حجةَ عليها" ([21])، لذلك هذا القول من أضعف الأقوال في دلالة الكِتاب في هذه الآية الكريمة.

القول السادس : ما افترضه الله من المكتوبات على الخلق :

هذا القول لا دليل عليه مِن الأثر أو السياق القرآني،فالله علَّم عيسى – عليه السلام – ما افترضه عليه من العبادات في الإنجيل، و هو الكتاب الذي أنزله اللهُ على عيسى – عليه السَّلام- ليكون لهم منهاجاً يهتدون به، و يأخذون بأوامره . فلذلك هذا القول لا يتوافق مع سياق الآية الكريمة .

القول السابع : ما أطلعه الله عليه من غيوب اللوح المحفوظ :

و هذا القول ذكره سعيد حوّى في تفسيره الأساس ، و هذا القول لا دليلَ عليه من الأثر و السياق، حيث إنَّ سياق القرآن الكريم الذي جاء الحديث فيه أنَّ علْمَ الغيب لا يعْلمُه إلا الله – علَّام الغيوم، فما الحكمة أن يختص عيسى – عليه السَّلام – بصفة من صفات الله، التي لا يصح لأحد أن يتصف بها، فالله حَصَرَ علْم الغيب بذاته، و نفاه عن غيره، فلذلك لما جاء اليهود و سألوا الرسول – صلَّى الله عليه و سلَّم – عن الروح، أجابهم " وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا "(الإسراء : 85)، و كذلك رسولنا محمَّد – صلى الله عليه وسلم – نفى علْمَ الغيب عن نفسه " قُلْ لَا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللَّهِ وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلَا أَقُولُ لَكُمْ إِنِّي مَلَكٌ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَى إِلَيَّ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ "(الأنعام : 50) ؛ فلذلك لا أحد يعلم ما في اللوح المحفوظ مطلقاً، لمْ يثبتْ أنَّ عيسى – عليه السَّلام –كان يعلمه.

المطلب الثاني : دلالة الكتاب في الآية الكريمة :

أولاً : السِّياق التاريخيُّ لحياة عيسى – عليه السَّلام – .

عيسى – عليه السلام – من الأنبياء الذين بعثهم الله إلى بني إسرائيل، و أراد الله أن لا يكون له أبٌ، ثُمَ أرادة الله أن يرفعه إلى السماء، ثُمَ يُعيده إليها في آخر الزمان .فينزِل في آخر الزمان كما أخبر النبيُّ – صلَّى الله عليه وسلَّم روى البخاريُّ عن أبي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – :" وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ،

[21] – تفسير المحرر الوجيز ، ابن عطية 1 \ 448

لَيُوشِكَنَّ أَنْ يَنْزِلَ فِيكُمْ ابْنُ مَرْيَمَ حَكَمًا مُقْسِطًا، فَيَكْسِرَ الصَّلِيبَ، وَيَقْتُلَ الخِنْزِيرَ، وَيَضَعَ الجِزْيَةَ، وَيَفِيضَ المَالُ حَتَّى لاَ يَقْبَلَهُ أَحَدٌ "([22])

قال العراقيُّ رحمه الله : " وَالْمُرَادُ أَنَّهُ يَنْزِلُ حَاكِمًا بِهَذِهِ الشَّرِيعَةِ لَا نَبِيًّا بِرِسَالَةٍ مُسْتَقِلَّةٍ وَشَرِيعَةٍ نَاسِخَةٍ فَإِنَّ هَذِهِ الشَّرِيعَةَ بَاقِيَةٌ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَا تُنْسَخُ، وَلَا نَبِيَّ بَعْدَ نَبِيِّنَا كَمَا نَطَقَ بِذَلِكَ، وَهُوَ الصَّادِقُ الْمَصْدُوقُ بَلْ هُوَ حَاكِمٌ مِنْ حُكَّامِ هَذِهِ الْأُمَّةِ، وَفِي حَدِيثِ النَّوَّاسِ بْنِ سَمْعَانَ فِي صَحِيحِ مُسْلِمٍ «أَنَّهُ حِينَ يَنْزِلُ يَمْتَنِعُ مِنْ التَّقَدُّمِ لِإِمَامَةِ الصَّلَاةِ، وَيَقُولُ إمَامُكُمْ مِنْكُمْ " ([23])(

فلا بدَّ لعيسى – عليه السَّلام – أن يتعلم شريعة النبيِّ محمَّد – صلَّى الله عليه و سلَّم –حتى يتبع ما جاء فيها، و يَحْكُم بين النَّاس بأحكامها. فلذلك إنَّ القولَ إنَّ المقصود بدلالة " الكِتَاب " في الآية الكريمة القرآنُ الكريمُ يتوافق مع السياق التاريخيِّ لحياة عيسى – عليه السلام – فالله سيُعلِّمه عيسى – عليه السَّلام – لِيَتَّبِعُه و يَحْكُم بين النَّاس بما فيه في آخر الزمان.

ثانياً : قراءة الآية الكريمة في سياقها القرآنيِّ :–

أولاً – و من خلال سياق الآية الكريمة التي ذكرت الكِتَاب،و الحِكْمة و التوراة و الإنجيل . فالتوراة و الإنجيل كتابان منزَّلانِ من عند الله، و الحِكْمة كما فسَّرها بعضُ المفسِّرين، هي السُّنة التي يوحيها إليه في غير كِتاب ([24]) . فلذلك إذا فسَّرنا الكتاب بتعليم الكِتَابة، كما يذهب إليه المفسِّرون، فما العلاقة بين تعليم الكِتَابة، وهي شأنٌ دنيويٌّ يتعلَّمه كلُّ إنسانٍ، و سياق الآية الكريمة التي تتحدث عن الكُتُب التي أنزلها الله على عليه، و امتنَّ عليه بتعْليمِهِ هذه الكُتُب المنزَّلة .

ثانياً : ورد لفظ " الكِتَاب " في هذه الآية متبوعاً بلفظ " الحِكَمة " و هذان اللفظان " الكِتَاب و الحِكْمة " وردا في القرآن الكريم في سياق تعليم الكِتَاب و الحِكْمة.

" رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ " 129 البقرة

" كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا مِنْكُمْ يَتْلُو عَلَيْكُمْ آيَاتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُمْ مَا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ" (البقرة: 151).

---

[22] – صحيح البخاري \ البخاريُّ ، محمد بن إسماعيل ، رقم الحديث 2222

[23] – طرح التثريب ، العراقيُّ 7 \ 265

[24] – جامع البيان في تأويل القرآن ، محمد بن جرير الطبريُّ 6 \ 423

لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْ أَنْفُسِهِمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ " 164 أل عمران

"هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ " (الجمعة: 2).

فالمقصود بالكِتَاب في هذه الآيات الكريمات القرآنُ الكريمُ، المنزَّلُ على سيّدنا محمَّد – صلَّى الله عليه وسلَّم – فلهذا جاء الحديث في هذه الآيات الكريمات عن تعليم محمَّد – صلَّى الله عليه وسلَّم – الكِتَابَ القرآنَ الكريمَ لإصْحابهِ – رضوان الله عليهم – فسياق هذه الآية " وَيُعَلِّمُهُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَاةَ وَالْإِنْجِيلَ " يشبه سياق هذه الآيات التي جاءت في تعليم الكِتَاب و الحِكْمة " وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ " مع الفارق بينهما أنَّ في هذه الآية " وَيُعَلِّمُهُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَاةَ وَالْإِنْجِيلَ " المعلِّم هو الله –سبحانه–، و في الآيات السابقة المعلِّم هو محمَّد – صلَّى الله عليه و سلَّم –، و الله كذلك علَّم سيّدنا محمَّد – صلَّى الله عليه وسلَّم – القرآنَ، ثمَّ رسولُنا – عليه السَّلام – عَلَمَنا، فلذلك تجد التَّناسقَ بين سياق هذه الآية الكريمة " وَيُعَلِّمُهُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَاةَ وَالْإِنْجِيلَ "والآيات الأربع السابقة.

إذاً ذِكْرُ الكِتَاب و الحكمة في سياق التعليم، يكون المقصود به القرآن الكريم، فلذلك حمْلُ دلالةِ الكِتَاب في هذه الآية الكريمة على أنَّه القرآنُ أوفقُ للسياق القرآنيِّ.

ثالثاً– إنَّ التعبير بصيغة الفعل المضارع " يُعَلِّمُهُ " يدلُّ على مراحلِ تعليمِ الله – سبحانه – لعيسى – عليه السلام – ابتداءً من تعْليمِهِ التوراةَ قبلَ أنْ يؤتيه الله الإنجيل، ثُمَّ تعْليمِهِ الإنجيلَ الكِتَابَ الذي آتاه الله له، ثُمَّ تعْليمِهِ الكِتَابَ القرآنَ الكريمَ، عندما ينْزِلُ في آخر الزمان و يتبعُ شريعة محمَّد– صلَّى الله عليه وسلَّم– فلذلك لا يمكن تخصيصُ الدلالة الزمنيَّة للفعل " يُعَلِّمُهُ " لِتدلَّ على الماضي فقط، أو المضارع، بل إنَّ السياق يدلُّ على الاستمرار في التعلُّم ابتداءً من تعْليمِهِ التوراةَ قبلَ أنْ يُؤتِيَهُ الله الإنجيلَ، ثُمَّ تعْليمِهِ الإنجيلَ، ثُمَّ في آخر الزمان يُعلِّمَهُ القرآنَ الكريمَ .

و في الآية الثانية " وَإِذْ عَلَّمْتُكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَاةَ وَالْإِنْجِيلَ "المائدة (110)، جاء الفعل الماضي " عَلَّمْتُكَ " في هذه الآية الكريمة في سياق الحديث عن مَشْهدٍ مِن مشاهد اليوم الآخر، حيثُ قال الله – تعالى – " يَوْمَ يَجْمَعُ اللَّهُ الرُّسُلَ فَيَقُولُ مَاذَا أُجِبْتُمْ قَالُوا لَا عِلْمَ لَنَا إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ (109)، ثُمَّ الحديث عن معجزات عيسى – عليه السَّلام –" إِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ اذْكُرْ نِعْمَتِي عَلَيْكَ وَعَلَى وَالِدَتِكَ إِذْ أَيَّدْتُكَ بِرُوحِ الْقُدُسِ تُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلًا وَإِذْ عَلَّمْتُكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَاةَ وَالْإِنْجِيلَ وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ بِإِذْنِي فَتَنْفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِي ..... " إِذْ قالَ اللَّهُ : بدلٌ من (يَوْمَ يَجْمَعُ) والمعنى: أنَّه يُوبِّخُ الكافرين يومئذٍ بسؤال الرسُلِ عن

إجابتهم، وبتعديد ما أظهر على أيديهم من الآيات العِظام، فكذَّبوهم وسمُّوهم سَحَرةً. أو جاوزوا حدَّ التَّصديق إلى أن اتخذوهم آلهة "([25])، ثُمَّ خُتِمتْ السورة ببيان جزاء الصادِّقين، و هذا يكون في اليوم الآخر " قَالَ اللَّهُ هَذَا يَوْمُ يَنْفَعُ الصَّادِقِينَ صِدْقُهُمْ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (119). لذلك صيغة الماضي " وَإِذْ عَلَّمْتُكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَاةَ وَالْإِنْجِيلَ " جاءت في سياق مَشْهدٍ مِن مشاهد يوم القيامة، لذلك جاء الامتنان مِن الله – سبحانه – على عيسى – عليه السَّلام – بتعْليمِهِ الكِتَابَ، القرآن الكريمَ، و التوراة و الإنجيل، و بياناً للحَّجة على بني إسرائيل الذين كذّبوه.

رابعاً – جاءت رواية عن أبي حاتم في تفسيره هذه الآية حيث قال : " حَدَّثَنَا الْحَسَنُ بْنُ مُحَمَّدِ بْنِ الصَّبَّاحِ، ثنا أَسْبَاطُ بْنُ مُحَمَّدٍ، عَنِ الْهُذَيْلِ، عَنِ الْحَسَنِ فِي قَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى: الكتاب قال: الكتاب: القرآن "([26]).

فأبو حاتم روى رويتين : إحداهما عن ابن عباس أنَّ المقصود بالكِتَاب الكِتَابة بالقلم، و الرواية الثانية عن الحسن البصري أنَّ المقصود به القرآنُ الكريمُ . و هذا الروايات هي اجتهادٌ منهم، لكنْ المفسِّرون اعتمدوا الروايةَ أن معنى الكِتَابِ في هذه الآية الكِتَابةُ و الخطُّ، مع إغْفالهم السِّياقَ القرآنيَّ، الذي يعتبر مِن أهمِّ مقومات فهْمِ النَّص القرآنيِّ.

نتائج الدراسة :

1-كلُّ المفسِّرين الذين استقرأتُ أقوالهم في دلالة "الكتاب " هذه الآية ذكروا أنَّ دلالة الكتاب في هذه الآية الكريمة " وَيُعَلِّمُهُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَاةَ وَالْإِنْجِيلَ " الكتابةُ و الخطُّ، مع أنَّ بعضاً منهم ذكروا أقوالاً أخرى في دلالة هذه الآية الكريمة كمَّا بينتُ معتمدِّين على النقل عمَّن قبلهم كالطبري الذي اعتمد على رواية ابن جُريج أنَّ معنى " الكتاب " في هذه الآية الكريمة الكتابة و الخطُّ.

2- الكِتَابةُ و الخطُّ من شؤون الدنيا التي يحتاجها الأنسان في حياته، فلذلك امتنَّ الله على الإنسان أنَّه علَّمَهُ بالقلم، و لا مَيزة و لا فضْل لعيسى – عليه السَّلام – عليهم بتعْليمِهِ الكِتَابةَ، حيثُ إنَّ النَّاس يتعلمونها من خلال الدراسة و الممارسة، و هي مِن احتياجاتهم في حياتهم .

3- جاء لفظ الكِتَابِ في هذه الآية الكريمة في سياق ذِكْرِ الكُتُب المنزَّلة التوراة و الإنجيل، التي آتاها اللهُ لأنبيائه، فلا تناسبَ و تناسقَ بين تعْليمِ الكُتُبِ المنزَّلة و تعْليمِ الكِتَابةِ و الخطِّ، و لا علاقةَ بينهما، حيثُ تعْليمُ الكُتُبِ المنزَّلةِ مِن الأمور التي امتنَّ الله عليه، أمَّا الكِتَابةُ و الخطُّ فهي من شؤون الدنيا .

[25] – الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل ، الزمخشريُّ 1 \ 690

[26] – تفسير أبي حاتم ، أبو حاتم 2 \653

4- جاء الكِتَابُ مقروناً بالحِكْمة في سياق التعليم في أربع آيات كريمات، و كان المقصود به القرآنَ الكريمَ،، لذلك حمْلُ دلالة الكِتَابِ في هذه الآية الكريمة على أنَّه القرآنُ الكريمُ يتناسب مع مجيء الكِتَاب و الحِكْمة في سياق التَّعليم، و أوفَقُ للسِّياق القرآنيِّ .

5- القول إنَّ دلالة الكِتَاب في هذه الآية الكريمة القرآنُ الكريمُ، تتناسَقُ مع السياق التاريخيِّ لحياة عيسى عليه السلام- حيثُ إنَّ حياتَهُ مَرْتْ بثلاثِ مراحلٍ، أوْلها ما قبلَ نزولِ الإنجيل، و كان الله قد مَنَّ عليه بتعْليمِهِ التوراةَ، ثُمَّ المرحلة الثانية عندما أَنزلَ الله عليه الإنجيل، ثُمَّ المرحلة الثالثة التي ستكون في آخر الزمان عندما يَنْزِلُ عيسى عليه السلام – فيُعلِّمُهُ الله القرآنَ الكريمَ .

6- المفسِّرون اعتمدوا الروايةَ عن ابن جُريج و ابن عباس أنَّ معنى الكِتَابِ في هذه الآية الكِتَابةُ و الخطُّ، مع إغْفالهم السياقَ القرآنيَّ، الذي يعتبر مِن أهمِّ مقومات فهْمِ النَّص القرآنيِّ .

7- لا يوجد ما يمنع من حمْلِ دلالةِ الكِتَاب في هذه الآية الكريمة على أنَّه القرآنُ الكريمُ ، فالسَّياق التاريخيُّ لحياة عيسى – عليه السَّلام – و سياق الآيات الكريمات يدلُّ أنَّ الأولى حمْلُ دلالة الكِتَاب على أنَّه القرآن الكريم .

المراجع :

- الطبريُّ، جامع البيان في تأويل القرآن، محمد بن جرير بن يزيد بن كثير بن غالب، أبو جعفر الطبري (المتوفى: 310هـ)،المحقق: أحمد محمد شاكر،الناشر: مؤسسة الرسالة،الطبعة: الأولى، 1420 هـ - 2000 م
- البخاريُّ،الجامع المسند الصحيح المختصر من أمور رسول الله صلى الله عليه وسلم وسننه وأيامه،صحيح البخاري،محمد بن إسماعيل أبو عبدالله البخاري الجعفي، المحقق: محمد زهير بن ناصر الناصر،الناشر: دار طوق النجاة الطبعة: الأولى، 1422هـ

* أبو حاتم، تفسير القرآن العظيم لابن أبي حاتم، أبو محمد عبد الرحمن بن محمد بن إدريس بن المنذر الرازي ابن أبي حاتم (المتوفى: 327هـ)،المحقق: أسعد محمد الطيب،الناشر: مكتبة نزار مصطفى الباز - المملكة العربية السعودية، الطبعة: الثالثة - 1419 هـ.

* ابن فارس، معجم مقاييس اللغة، المؤلف: أحمد بن فارس القزويني الرازي، أبو الحسين (المتوفى: 395هـ،المحقق: عبد السلام محمد هارون، الناشر: دار الفكر، عام النشر: 1399هـ - 1979م

* الراغب الأصفهانيُّ، المفردات في غريب القرآن، أبو القاسم الحسين بن محمد المعروف بالراغب الأصفهاني (المتوفى: 502هـ، المحقق: صفوان عدنان الداودي،الناشر: دار القلم، الدار الشامية - دمشق بيروت، الطبعة: الأولى - 1412 هـ

* البغويُّ، معالم التنزيل في تفسير القرآن، محيي السنة، أبو محمد الحسين بن مسعود بن محمد بن الفراء البغويّ الشافعي (المتوفى : 510هـ) المحقق : عبد الرزاق المهدي،الناشر : دار إحياء التراث العربي –بيروت،الطبعة : الأولى، 1420 هـ
* الزمخشريُّ، . الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل، أبو القاسم محمود بن عمرو بن أحمد، الزمخشري المتوفى: 538هـ،الناشر: دار الكتاب العربي – بيروت، الطبعة: الثالثة - 1407 هـ
* ابن عطية، المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، أبو محمد عبد الحق بن غالب بن عبد الرحمن بن تمام بن عطية الأندلسي المحاربي (المتوفى: 542هـ)، المحقق: عبد السلام عبد الشافي محمد
الناشر: دار الكتب العلمية – بيروت، الطبعة: الأولى - 1422 هـ
* الرازيُّ، مفاتيح الغيب، التفسير الكبير، أبو عبد الله محمد بن عمر بن الحسن بن الحسين التيمي الرازي الملقب بفخر الدين الرازي خطيب الري (المتوفى: 606هـ)،الناشر: دار إحياء التراث العربي – بيروت، الطبعة: الثالثة - 1420 هـ
* القرطبيُّ، الجامع لأحكام القرآن، أبو عبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر بن فرح الأنصاري الخزرجي شمس الدين القرطبي (المتوفى: 671هـ)، تحقيق: أحمد البردوني وإبراهيم أطفيش،الناشر: دار الكتب المصرية – القاهرة،الطبعة: الثانية، 1384هـ - 1964 م

* البيضاويُّ، أنوار التنزيل وأسرار التأويل، ناصر الدين أبو سعيد عبد الله بن عمر بن محمد الشيرازي البيضاوي (المتوفى: 685هـ)،المحقق: محمد عبد الرحمن المرعشليّ،الناشر: دار إحياء التراث العربي – بيروت،الطبعة: الأولى - 1418 هـ.
* أبو حيان، البحر المحيط في التفسير،المؤلف: أبو حيان محمد بن يوسف بن علي بن يوسف بن حيان أثير الدين الأندلسي المتوفى: 745هـ،المحقق: صدقي محمد جميل،الناشر: دار الفكر – بيروت،الطبعة: 1420 هـ
* ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي البصري ثم الدمشقي (المتوفى: 774هـ)،المحقق: سامي بن محمد سلامة، الناشر: دار طيبة للنشر والتوزيع،الطبعة: الثانية 1420هـ - 1999 م
* ابن عادل، اللباب في علوم الكتاب، أبو حفص سراج الدين عمر بن علي بن عادل الحنبلي الدمشقي النعماني (المتوفى: 775هـ)، المحقق: الشيخ عادل أحمد عبد الموجود والشيخ علي محمد معوض، الناشر: دار الكتب العلمية - بيروت / لبنان، الطبعة: الأولى، 1419 هـ -1998م
* أبو السعود، إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم، أبو السعود العمادي محمد بن محمد بن مصطفى (المتوفى: 982هـ)،الناشر: دار إحياء التراث العربي - بيروت .
*القاسمي، محاسن التأويل، محمد جمال الدين بن محمد سعيد بن قاسم الحلاق القاسمي (المتوفى: 1332هـ)،المحقق: محمد باسل عيون السود، الناشر: دار الكتب العلميه – بيروت،الطبعة: الأولى - 1418 هـ

* السعدي، الكتاب: تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، عبد الرحمن بن ناصر بن عبد الله السعدي (المتوفى: 1376هـ)،المحقق: عبد الرحمن بن معلا،الناشر: مؤسسة الرسالة،الطبعة: الأولى 1420هـ -2000 م

* ابن عاشور، التحرير والتنوير «تحرير المعنى السديد وتنوير العقل الجديد من تفسير الكتاب المجيد»

المؤلف : محمد الطاهر بن محمد بن محمد الطاهر بن عاشور التونسي (المتوفى : 1393هـ)

الناشر : الدار التونسية للنشر – تونس،سنة النشر: 1984 هـ

*حوّى، الأساس في التفسير، المؤلف: سعيد حوّى (المتوفى 1409 هـ)، الناشر: دار السلام – القاهرة، الطبعة: السادسة، 1424 هـ

- تمام حسان،اللغة العربية معناها ومبناها، تمام حسان عمر، الناشر: عالم الكتب، الطبعة: الخامسة 1427هـ-2006م